رواية الرّباط المقدس لتوفيق الحكيم

في علاقتها برواية "تاييس" لأناتول فرانس

في ضوء منهج الأدب المقارن

د. فوزية الصفار الزاوق

(تونس)

دوافع البحث

ما الذي دفعنا إلى القيام بهذه الدراسة المتعلقة بتوفيق الحكيم (ت ١٩٨٧) وروايته "الرباط المقدس"؛ لا شيء يدفعنا إلى ذلك بادئ الأمر، سوى أن هذا الكتاب، حسب علمنا، لم يأخذ حظّه من الدرس على ما له من أهميّة، في رأينا، بل لعلّه أُهمل إهمالا كاملا في جُل الدراسات النقدية، وقد يستوجب هذا الموضوع دراسة مفردة.

والأمر الثابت كذلك أنّ هذا الكتاب لم يُترجم إلى لغة أجنبية وذلك خلافاً لما حصل لجلّ آثار الحكيم الأدبيّة. كل ذلك دفعنا إلى أن نتعرّف قضيّة هذا الكتاب أي فلسفة مشكلته في الإبداع الأدبي. والحق أنّ عنوانه هو أول ما لفتنا إليه، إنه يدل على لقاء بين شخصين بلغ طور القداسة، فتساءلنا من هما هذان الشخصان وكيف حصل بينهما هذا الرباط المقدّس يا ترى؟

وما إن شرعنا في قراءة النصّ العربي لتوفيق الحكيم بعنوان الرباط المقدس حتى أدركنا أنّه نصّ له صلة وثيقة بنصّ أجنبيّ عنوانه تاييس(Thais) للكاتب الفرنسيّ الشهير أناتول فرانس (Anatole France ت ١٩٢٤) .

وقد أعلن الكاتب المصري في مواطن عدّة أنّه تأثّر به أيما تأثّر. وقد وصف طريقة تأثره إطلاقاً بقوله: "ليس يعنيني في كل الأحوال الإلمام بموضوع الكتاب، إنّ مثلي مثل الطاهي الذي يدخل مطابخ الآخرين... إنّه ليس محتاجاً في كل مرة إلى أن يتناول أكلة واحدة ليحكم على جودة الصناعة بل يكفيه لعقة واحدة من كل إناء..." (١).

وليس هذا الاعتراف غريبا لأنه ذكرنا بما نجده مبثوثا هنا وهناك في جُلّ مقدمات كتب توفيق الحكيم ومسرحياته وراواياته حول مذهبه في الاقتباس والتأثر الأدبيّ. من ذلك قوله ذاك مثلا في إحدى هذه المقدمات: "لا أترك كتاباً حتى أتصفحه، كان نصفُ تحصيل العلم في أوّل أمري في تصفّح الكتب خلسة بدون مقابل، ألتقط من كل كتاب فكرةً أو فكرتين، كالعصفور يلتقط من كل سنبلة حبّة أو حبّتين"(٢).

ومن غريب الصدف في تلك الأثناء أن أقبلت على الحكيم فتاة قاهرية ترغب منه في أن يساعدها على إدراك الأدب وشؤون الفكر. وبعد حيرة منه في الظفر بجواب مقنع اهتدى إلى أنّ بينه، في وضعه اليوم، وبين الراهب بافنوس (Paphnus) بطل تاييس بالأمس صلة متينة. لقد أحسّ أن ظروفاً ما وضعتهما في موقف مماثل فرجع إلى كتاب أناتول فرانس طلباً لإدراك ذلك الشبه، وعندها أدرك الكاتب المصري أن راهب الفكر كما يطيب له أن ينعت نفسه، وراهب الدير بافنوس كما يسميه أناتول فرانس صنوان: لقد أدرك لأول مرة في حياته أن رجل الأدب، له رسالة نبيلة تماماً تماثل رسالة رجل الدين. ومرة أخرى طافت برأسه صورة راهب تاييس . لقد تذكر أن تاييس تلك الغانية اللعوب، جاءت الراهب بافنوس بالأمس، تلتمس منه أن يكشف لها عن نور الحق. إننا، في هذا المستوى من البحث نجد أنفسنا مع راهبين ومع فتاتين: إحداهما تطلب من راهب الفكر أن يهديها طريق الفكر وشؤون الأدب، وفتاة لعوب تطلب من

(١) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ٤٥.

(٢) توفيق الحكيم، تحت شمس الفكر، مكتبة الآداب، ١٩٨٢، ص ١٢٥.

راهب الدين أن يهديها إلى نور السماء. وعند ذلك خطر لتوفيق الحكيم أن يسترشد بما فعله الراهب بافنوس مع الفتاة تاييس فعاد بالقراءة لرواية تاييس لمؤلفها أناتول فرانس ينظر فيها بالتحليل الموافق والنظر الصائب عله يجد فيها استجابة لبغية فتاته مادامت الحياة قد وضعتهما في موقف مماثل.

إشكالية البحث

علمنا بفضل الكاتب العربي توفيق الحكيم أن مصدرا واحدا كان له تأثير بين في روايته الرباط المقدّس، ولكنّ قضية المصادر في الدراسات الأدبية الحديثة تبدو أكثر تعقيدا، ويخامرنا في هذا الصدد سؤال مهمّ هو: لمن تعود وظيفة ضبط المصادر في الآثار الأدبية؟ هل المؤلف هو المسؤول الأول عن تحديد مصادره أم هل للقارئ كذلك حقّ في اكتشاف تلك المصادر وتحديدها؟ وهل في الإمكان التأثر بمصدر واحدٍ والحال أن الأثر الأدبّي المفرد هو نصّ جامع تُغذيه نصوص أخرى مختلفة فتجعل منه نصاً طريفا جديداً. وإن زعم مؤلف ما غير ذلك فللقارئ حقّ الاعتراض كذلك على هذا الزعم بمقارنة النصوص بعضها ببعض طلباً للأدلة المقنعة.

ولئن زعم توفيق الحكيم أن تأثره في الرباط المقدّس قد اقتصر على رواية تاييس لأناتول فرانس، فإنّه في الوقت ذاته يُدلي بغير ذلك متحدّثا عن بطلة رواية الرباط المقدس في مواقف أخرى، وفي ذلك نظفر بشهادتين مختلفتين متناقضتين الشهادة الأولى ذكرتها الباحثة كوثر عبد السلام البحيري قالت: "وقد أكد لنا الكاتب أنّه عرف بطلة روايته هذه، وأنّه لم يكتب شيئاً خاصّا بها من نسيج الخيال، وأن كلّ ما قصّه عنها هو الحقيقة برمتها"[(١)]. وكانت هناك نساء قمن بدور الملهمات لتوفيق الحكيم وقدّمن له نماذج بطلاته في الرباط المقدس؛ وهنا يذكر توفيق الحكيم" تأثير قصة تاييس لأناتول فرانس في بطلة روايته هذه .

(١)كوثر عبد السلام البحيري،أثر الأدب الفرنسي على القصّة القصيرة، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ٢٥٧ ما بعدها.

أمّا الشهادة الثانية، فقد جاءت على لسان توفيق الحكيم نفسه قال: "أمّا بطلة الرباط المقدّس فلم أعرفها ولم أرها ولكنّي عرَفت قصّتها بالسماع، أي قصة المرأة المتحررة التي سعت وراء المغامرة من خلف زوجها المهذب الفاضل. . . أما حكاية التجائها إلى الأديب "راهب الفكر" وما حدث بينهما في هذه الرواية فإنه من صنع الخيال الصرف"(١).

إذن الشهادتان متناقضتان، الأولى يؤكد فيها معرفته ببطلة روايته، والثانية ينكر فيها معرفتها وملاقاتها. وأكبر الظنّ أنّ هاتين الشهادتين يمكن أن تتكاملا وأن يكون خبر المرأة المتحرّرة قد وصل إلى الحكيم بوجه من الوجوه وأنّه من الصعب أن يكون كلّ ما قاله عنها هو من صنع الخيال. لكن هنا لابدّ من أن ندخل عنصراً آخر به نؤسس الفرضية التي نميل إليها.

توفيق الحكيم متأثر فعلا وحقاً برواية أناتول فرانس تاييس كما صرّح بذلك في غضون نصّه. وقد ثبت لدينا كذلك أنّ الرباط المقدس له علاقة بكتب أخرى كذلك.

نذكر على سبيل المثال رواية المسترجلة (La garconne) لفيكتور مارجوريت (V. Marguerite) وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٢. (٢) .

ورواية المسترجلة شاع صيتها في نهاية الربع الأول من القرن العشرين عندما كان توفيق الحكيم مقيما بباريس لمدة خمس سنوات (١٩٢٤– ١٩٢٨). واعتبر كتابه آنذاك فضيحة أخلاقية. وقد أحسّ الحكيم وهو يستفيد منها أنه قد يرمى بالتقليد ويتهم "بالسرق الأدبي" (Plagiats Litteraires) بل قد يُلام على تناول موضوع مزعج للمجتمع

(١)توفيق الحكيم، ملامح داخلية، مكتبة الآداب والمطبعة النموذجية، ١٩٢٢، ص ٣٠١.

(٢) V. Marguerite, La Garconne, ed. Flammarion, 1922

ولد فيكتور مارجوريت بمدينة بليدا (Blida) بالجزائر سنة ١٨٦٦، ثم رحل إلى بلده فرنسا حيث توفي سنة ١٩٤٢، وكما هو معلوم فإن صدور هذا الكتاب اعتبر فضيحة أدت إلى طرد مؤلفها من الأكاديمية الفرنسية والحرمان من وسام جوقة الشرف.

المصريّ فدافع عن نفسه دفاعاً، به أثبت أنّ التقليد لا ينفي الأصالة، وأنّ الكاتب الأصيل ليس ذاك الذي لا يُقلّد أحداً.

فالحكيم يؤمن بعبقرية المؤلف وهو ينقل أثراً أدبيا ما من لغته الأصلية إلى لغة أجنبية وذلك بالإضافة والتجديد كما يؤمن بتفاعل الآداب وتكاملها. فالأصالة الحق عنده لا تكمن في التعبير عن معان جديدة لم يسبق إليها بل هي معان متخلجة في صدر كل واحد منّا، إلا أن المبدع الأصيل يكون من حظّه حسنُ مراسها. إن الاستنبات عنده "هو أهم منابع الأصالة في حقل النشاط الإنساني"(١).

وهو كذلك متأثر بالكاتب الفرنسي أندري موروا (Andre Maurois 1885- 1967) صاحب كتاب حياة ديزرائلي (la Vie de Diraeli). وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٩٢٧ . ألم يستلهم الحكيم ويضمن نصّه الروائي فقرات عديدة كان لها بالغ الأثر في نفسه نتيجة إعجابه بزوجة ديزرائيلي لوفائها وإخلاصها؟ ألم يحدث بها فتاته المصرية قائلا: "تلك خلاصة هاتيك الصفحات التي هزت نفسي من ذلك الكتاب، نقلت إليك أكثرها كي تحبّي ماري آن كما أحببتها"(٢).

إنّنا إزاء قضيّة مرتبطة أساسا بكتابين في لغتين مختلفتين وثقافيتين متباينتين: الكتاب الأول هو رواية تاييس لمؤلفها أناتول فرانس والكتاب الثاني هو رواية الرباط المقدس لتوفيق الحكيم. إنّنا سنعمل على الاستفادة من النقاد الغربيين ومن محاولاتهم في ضوء منهج الأدب المقارن، ومن محاولاتهم كذلك في ضبط نظرية التناصّ والتمكّن من آلياته الإجرائية واستثمارها. إلا أننا سنقف على وجه الخصوص عند التنظير التطبيقي الذي عقده ميشال أريفي (Michel Arrive)

(١) توفيق الحكيم، ملامح داخلية، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٢٥.

(٢) الرباط المقدس، ص ١٠٠.

وكاترين أوريكيوني (Catherine Orrechionni) لنستضيء به استضاءة منهجية في دراسة رواية الرباط المقدس لتوفيق الحكيم في علاقتها برواية تاييس لأناتول فرانس.

الأدب المقارن وقضية التناص

معلوم أنّ الأدب المقارن يساعد على دراسة مختلف الآداب في علاقة بعضها ببعض حتى تخرج من عزلتها. ولن يضير كاتبا – مهما تكن عبقريته، ومهما سما فنه – أن يتأثر بإنتاج الآخرين حتّى ينتج منه أدبا مغايراً له، متسما بمواهبه.

الحقّ أن الأدب المقارن كان له السبق تاريخياً، حسب رأينا، في العناية بالنصوص الأدبية. كما نعلم أنّ الأدب المقارن خلال تطوّره المتصل، وعند مختلف المقارنيّين يكاد يقوم على العملية التأثريّة. ليس لنا، هنا والآن، أن نستعرض أطوار الأدب المقارن، وحسبنا أن نشير إلى بعض التعريفات التي تعكس مفاهيم أصحابها ومرجعيّاتهم عن هذا العلم أو عن هذا الفرع المعرفي. يقول بول فان تيغم (P.V. Tieghem) كبير المفكرين في نظريّة الأدب مثلاً أن "الأدب المقارن هو دراسة الآداب المختلفة من ناحية علاقات بعضها ببعض"(١). ويقول مريوس فرانسوا غويار (Marius Francois Guyard) "الأدب المقارن هو دراسة العلاقات المتبادلة ما بين آداب شعوب مختلفة"(٢) ونتصفح بسرعة بحوثاً شتّى في مراحل مختلفة لنقف عند كتاب عنوانه الأدب المقارن الذي اشترك في تأليفه كلود بيشوا (Claude Pichois) وأندري ميشال روسو (Andre- Michel Rousseau) الصادر سنة ١٩٦٧ . لقد استعرض فيه مؤلفاه خلاصة البحوث المقارنية، وقدّما فيه تعريفاً دقيقا مفيداً لمفهوم الأدب المقارن قالا: "الأدب المقارن هو فن تقريب الأدب من ميادين التعبير والمعرفة الأخرى بطريقة منهجية، عن طريق البحث عن روابط التشابه والقرابة والتأثير، أو تقريب الوقائع والنصوص الأدبية

(١) بول فان تيغم، الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ص ١١ .

(٢) مريوس فرانسوا غويار: الأدب المقارن، ترجمة محمّد غلال ود. عبد الحليم محمود، لجنة البيان العربي، ١٩٥٦ .

فيما بينها، متباعدة أولاً في الزمان والمكان، بشرط أن تنتمي إلى عدّة لغات أو عدّة ثقافات، وأن تؤلّف جزءاً من تقاليد واحدة، وذلك من أجل وصفها وتذوقها بطريقة أفضل"(١). وقد استفاد من هذا الكتاب بعدهما إيف شفرول (Yves Chevrel) في كتابه الذي عنوانه "الأدب المقارن"، الصادر سنة ١٩٨٩ واعتمد التعريف ذاته. وأخيراً، وفي غير استظهار، لكل الكتب التي صدرت، نقف عند الكتاب الجيد الذي ألفه دانيال هنري باجو (Daniel- Henri Pageaux)، ويمكن أن نعتبره محصل أسرار الأدب المقارن. وقد اعتمد هذا المؤلف كذلك التعريف الذي كان اقترحه المؤلفان كلود بشوا وأندري ميشال روسو.

ثم اتخذه بعد ذلك هنرى دانيال باجو في تعريف الأدب المقارن والأدب العام. ويؤكّد هذا المعنى بقوله: "لقد مرّ قرن على الأدب المقارن، وهو يدرس الآداب، فله اليوم أن يكون منفتحا على الأدب الأجنبي وعلى مختلف الفنون، وعلى مختلف التقاليد الاجتماعية والثقافية. ولا بدّ له من أن يدرس الأدب، لا من حيث هو مجموعة ظواهر أو مجموعة نصوص؛ بل من حيث هو فعل إبداعي وتأكيد لخيال خلاّق: إنه بذلك يبلغ المدى الإنشائي" (٢). أما الأمر الذي يلفتنا فهو الصلة القريبة بين الأدب المقارن والتناصّ.

وخلاصة القول أن كلمة "التناصّ" أثارت جدلاً متصلاً إذ اهتدى النقاد العرب منذ القديم إلى إرهاصات مفهوم "التناصّ"، وغاب عنهم المصطلح فأدركوا أنّ النصوص تلتقي وتتداخل وتتواصل متضافرة. واهتدى النقاد الغربيّون في العصر الحديث أوّل الأمر إلى مفهوم التناصّ مع الباحث السوفياتيّ باختين وأدركوا المصطلح الفنيّ مع الباحثة جوليا

(1) Claude Pichois et Andre- Michel Rousseau, La Litterature compare, 1967, Armand. Colin. P174

-كلود بيشوا وأندري ميشال روسو، الأدب المقارن، ترجمة رجاء عبد المنعم جبر، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٩٥.

(2)Daniel – Henri Pageaux: La literature generale et compare, Paris, Armand Colin, 1994, PP 189.

كريستيفا (Julia Kristeva). ومفهومه حضور نصّ سابق في نصّ لاحق. وما هي إلا أن تطور المصطلح في فرنسا وخارجها متجاوزاً حدود "الإنتاج" إلى "الإنتاجية " مدركا مستوى "التفاعل التحويليّ" الذي ينشأ بين النصوص، ثم بلغ المفهومُ نضجا وتوسّعا، به اتضحت العلاقات بين النصوص. وما هي إلاّ أن أصبح مفهوم "التناص" مجالا للدرس والبحث.

التناصّ عند النقاد الغربيين

إنّ النص الأدبيّ منذ عقود لفت انتباه الباحثين الغربيين فانبروا إلى درسه تحقيقا وفحصاً. وآل الأمر في أيّامنا إلى أن جعلوا منه موضوع علم اتفقوا على تسميته "التناص"(intertextualite). والكلمة مكوّنة من سابقة واسم لاتينّي الأصل [١]، وهي تعني كلّ أشكال حضور نص في نص آخر. وهم بهذه التسمية يقصدون أن كل نص هو نسيج من نصوص مختلفة متباعدة أو متزامنة.إنه مفهوم نقديّ جديد يُغري بالدرس "إذ هو يتجاوز النقد التاريخي، والنقد الاجتماعي، والنفساني، كما يتجاوز النظر إلى النصّ الأدبي بوصفه إنتاجاً مغلقا. .. وكذلك يتجاوز التعامل مع ذات مبدعة"[٢].

(١) عن إليزابيث رافرالّو، مناهج النقد الأدبيّ، ترجمة الصادق قسومة، دار سينترا، المركز الوطني للترجمة، تونس ٢٠١٠، الطبعة الأولى، ص ٣٠٤.

(٢) انظر بسام الشاربي، التناص عند أبي نواس، ص ٤

لا أحد ينكر مجهود المفكر السوفياتي ميخائيل باختين (Michael Bakhtine) [١] في الاهتداء إلى مفهوم التناص وإن لم يكنْ هو صاحب المصطلح. وهو الذي استنتج "أن كل نصّ يقع عند ملتقى نصوص كثيرة يُعيد قراءتها ويؤكدها ويكثفها ويحوّلها ويعمّقها في الوقت ذاته"[٢].

* * *

ويجمع النقّاد على أن الباحثة البلغاريّة الأصل الفرنسيّة الجنسيّة "جوليا كريستيفا"[٣] هي التي أشاعت أوّل الأمر مصطلح "التناص" في فرنسا ثمّ في أوروبا وأمريكا. كان منطلقها في تعاملها مع النصوص الأدبية تحليلاً سيميائياً.

والسيميائية، في نظرها، "طريقة في إدراك النصّ على أنه تداخل نصيّ، والتفكير فيه على أنه نصّ المجتمع والتاريخ"[٤] وهذا ما جعلها تستكشف مصطلح "الإيدولوجيم" (ideologeme)، وهو مرادف لمصطلح التناص.

معلوم أنّ جوليا كريستيفا قد اشتغلت بتحديد النصّ لمقاصد معرفية، قالت: "حدّ النص عندنا أنّه جهاز خارق للغة يعيد توزيع نظامها رابطا بين كلام إبلاغي هدفه الإعلام المباشر، وبين ملفوظات مختلفة متقدمة عليه أو متزامنة معه"[٥].

ويعترف رولان بارت (Roland Barthes) [٦] بأن النقاد المحدثين في فرنسا مدينون لجوليا كريستيفا بالمفاهيم النظرية

---

(١)ميخائيل باختين، مفكر وناقد روسي (١٨٩٥- ١٩٧٥م) وهو، كما عرّفه تودوروف (Todorov) في كتابه الموسوم بـ "ميخائيل باختين: المبدأ الحواري"، "أبرز مفكر سوفياتي في ميدان العلوم الإنسانية وأكبر منظر للأدب في القرن العشرين "، الترجمة العربية المذكورة ، ص ١٦٤.

(2) Theorie de l'intertextualite: in Encyclopaedia Universalis- France.

(٣) منظرة في الأدب وعلم العلامات، من أصل بلغاري، ولدت سنة ١٩٤١.

(4)Julia Kristeva, Semeiotike, Recherches pour une Semanalyse, Paris, Seuil 1969

(٥)رولان بارت، نظرية النصّ، تعريب منجي الشملي وعبد الله صولة، ومحمّد القاضي، مجلة حوليات الجامعة التونسيّة، عدد ٢٧، سنة ١٩٨٨، ص ٨١.

(٦)Roland Barthes ناقد ومفكر فرنسيّ، مارس عدّة مقاربات قبل أن يتزعّم المذهب النصاني. (١٩١٥- ١٩٨٠) (م).

الأساسية التي يتضمنها هذا التعريف. فهي التي لفتت النظر إلى مفهوم القارئ باعتباره مشاركاً للمؤلف في عمليّة إنتاج النص. لقد أفضت بها وجهة النظر هذه إلى اعتبار النصّ "إنتاجية" (Productivite). والإنتاجية تعني أن النصّ "مسرح لإنتاج يلتقي فيه منتج النص وقارئه ".(١)

كان بارت مؤيّدا للباحثة جوليا كريستيفا فيما ذهبت إليه، لكنّه اجتهد في دعم النقد الجديد إذ أذاع فكرة موت المؤلّف مخلّصا النصّ من سيطرة المنتج أو محرّراً إياه منها. فالمؤلّف لم يعد المبدع للنص وانمّا القارئ هو المبدع. ألسنا، على حدّ تعبير بارت، على مشارف عصر القارئ؟ ألم يكن رولان بارت هو الذي وسّع مفهوم التناصّ كما أنشأته كريستيفا، وأشاع مفهوم "لذة النص" "Plaisir du texte"، فأثبت أنّه ممارسة نصيّة ممتعة تتجاوز "النص الثابت" إلى "النص الصيرورة"، كما أشاع مفهوم "النص الجامع" (Architexte) أي "النص الذي تقوم في أحنائه نصوص أخرى في مستويات متغيرة، وبأشكال قد نتعرفها، إن قليلاً أو كثيرا، هي نصوص الثقافة السابقة، ونصوص الثقافة الرّاهنة، فكل نص هو نسيج طارف من شواهد تالدة"(٢). وقد أشاع بارت كذلك مفهوم "التدلال" (signifiance) أي "النص في حال العمل . . . بصرف النظر عن جنسه أو مرتبته من الثقافة المنتجة له أو درجته من الجودة والرداءة"(٣). لذا اقترح رولان بارت مصطلح "النسيج" للتعريف بهذا التصور العلائقي بين نصّ ونصوص أخرى. وهو، من هذا المنظور، يتجاوز

(١) المصدر ذاته، ص٧٧.

(٢) رولان بارت، نظرية النص، ص ٨١.

(٣) المصدر ذاته، ص ٨١ و ص ٨٥.

المعنى الأوحد الذي يمتلكه المؤلف دون سواه؛ وهذا ما ألهم بارت مفهوم "النص النسيج" المشتقّ من "الأصل اللاتيني. Textus" [١].

وليس خفياً أن بارت يُلح على الفكرة التوليدية إذ أنّ النصّ، في نظره، "ينتج ذاته ... متفاعلاً مع نصوص أخرى يولجها في نسيجه الخاص، ويصهرها صهراً في خلاياه، فتغدو جزءا منه، تماما كالعنكبوت التي تذيب نفسها في خيوطها"[٢]. سيتصل القول والنقاش في تحليل مفهوم "التناصّ" مع جماعة "كما هو Tel quell". ومعلوم أن لهذه الجماعة ذاتها مجلة تحمل الاسم ذاته، وقد نشط مديرها سولرز "Sollers" لانتقاد المقولات الأساسية التي اعتمدها النقد التقليدي، وهي المتعلقة بوحدة المؤلّف ووحدة المعنى ووحدة الحقيقة. كما أنشأت الجماعة كتابا قيّما عنوانه "النظرية الجامعة"[٣]. واتصل النقاش خلال الثمانينات التي شهدت بحوثا ومنشورات في هذا الصدد، كانت شاهداً على "بلوغ هذا المفهوم طور النضج"[٤].

(١)الموسوعة العالمية، الأصل الفرنسي، "نظريّة التناصّ"، ص ٥١٥. وهذا المعنى ليس غريبا عن التراث النقدي العربي، إذ نجد له توظيفاً عند الجاحظ حين قال: "وإنما الشعر صناعة وضرب من النسج" (انظر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩، ج١، ص ١٣١). كما نجد له توظيفا مفيداً عند ابن طباطبا العلوي وهو يشبه الشاعر "بالنسّاج الحاذق" (انظر المصدر ذاته، ٤٣).

(٢) رولان بارت، نظرية النص، ص ٨٢.

(3)Theorie d'ensemble; Coll; Quel, ed du Seuil, Paris 1968.

(٤) الموسوعة العالمية: نظرية النصّ، ص ٥١٥.

وما هي إلا أن أخذت نظرية التناصّ منعرجاً جديداً مع رولان بارت وجيرار جينات (Gerard Genette) وميشال ريفاتير (Michel. Riffaterre)[١] ومن إليهم، فمعهم تسرّبت هذه النظرية إلى مختلف المناهج النقدية الحديثة. ومعهم مثّلت منهجا في القراءة والتحليل، وملمحا من ملامح الأدبية. وليس لنا، هنا والآن، أن نقف عن "أنطوان كمبانيون (Antoine Campagnon) مثلا، في كتابه اليد الثانية أو اشتغال الشاهد[٢] "La second main ou le travail de citation" ولا عند لورون جيني (Laurent Jenny) في مقاله القيم مخطط الشكل) [٣] "La strategie de la forme"(ولا عند ميشال شنايدر (Michel. Schneider) في كتابه سرقة الكلمات، بحث في السرقة والتحليل النفسي والتفكير"[٤] "Voleurs des mots, essai sur le plgiat, la psychanalyse et la pensee" لأنّ كل واحد من هؤلاء الباحثين يمثل مظهرا مخصوصا من مظاهر التناصّ. إنّما غرضنا أن نقف عند باحثين مهمّين انعرَجا بالتناصّ انعراجاً يلفت انتباه الناقد الباحث وهما أوّلا: ميشال أرّيفي (Michel Arrivee) في أطروحته

(١) ميشال ريفاتير (١٩٢٤– ٢٠٠٦) فرنسي، بحث في النقد واللسانيات والمعجمية.

(2)Antoine Compagne, La seconde main ou le travail de la citation, Paris, Seuils, 1979,

(3)Laurent Jenny, "Le Strategie de la forme", Poetique, n^0 27, 1976.

(4)Michel SCHNEIDER, Voleurs de mots, essai sur le plagiat, La Psychanalyse et la pensee, Paris, Gallimard, 1985.

التي موضوعها لغات جارّي "Les Languages de Jarry"[١] وثانيا: Catherine Kerbrat orrecchioni في كتابها الذي عنوانه: في الدلالة الحافة" (La Connotation)[٢]

أنشأ ميشال أرّيفي أطروحة دكتورا عنوانها لغات جارّي، وهي بحث في مظاهر العلاقة بين مؤلفات ثلاثة في ضوء "نظرية التناص". وقد حدّد ميشال أريفي في مقدّمة عمله مفهومه "للتناص"، وقدم تصورّاً لأشكاله المختلفة.لا يخفى أنّ الناقد الفرنسي ميشال أريفي يسير على خطى كريستيفا في تحديد أهمّ المفاهيم التي اعتمدها في تعريفه النصّ الأدبي مثل مفهوم "الإنتاجية" و "التناص". ولئن استفاد من بحوث "جوليا كريستيفا فقد تجاوز مفهوم "التناص" في صيغته الشكلية وعرض مفهوما جديداً يتعلق بالنص الأدبي ومدى صلته "باللغة الإيحائية".

وتعتبر أوريكيوني من بين هؤلاء النقاد الذين تأثروا بما تقدم من الأعمال النقدية النظرية والتطبيقية، وخاصة ببحث ميشال أريفي في كتابها الذي عنوانه "في الدلالة الحافة". وقد استفادت هذه الباحثة استفادة رشيدة من أطروحة ميشال أريفي. وهي، على رأيه، في تحديد ماهية النص الأدبي باعتباره "لغة إيحائية". وهي تعترف بتحليله المعمّق "لاشتغال الإيحاء التناصي" ضمن أطروحته. ولئن استفادت الباحثة أوريكيوني من نتائج البحث التي وصل إليها، فهي كذلك أقبلت على نقده، واقترحت تصنيفا مغايراً لتصنيفه:

---

(1) Arrivee (Michel): Les Languages de Jerry, service de reproduction des theses- Universite de Lille III 1973.

(2) Catherine Kerbrat Orrecchioni, La Connotation; Presses Univesitaires de Lyon, 2[eme] edition 1983.

Connotayion بمعنى حاف: كلمة مركبة من سابقة واسم لاتيني الأصل، ويطلق هذا المصطلح في النقد على الدلالة الثانية المقترنة بلفظة محددة أو بأثر أدبي معين، وهذا المعنى يكون بالضرورة خارج دلالة الأثر الأصلية أو الأولية Denotation (أنظر مناهج النقد الأدبي، ص ٢٩٦).

أولاً: إنها ترى مثله تماماً أن "النص الثاني" يستدعي من "النص الأول" عناصر مضمونية أو عناصر تعبيرية. وتقرّ بإمكانية إنتاج هذه العناصر بتحويلها وتعديلها، مشيرة إلى أنّ هذا التحويل قد لا يكون تماثلاً بل قد يكون تضاداً أو مناقضة أو مغايرة (Transformation autonymique). وهذا ما سيلفت انتباهنا في دراستنا رواية الرباط المقدس لتوفيق الحكيم في علاقتها برواية "تاييس" لأناتول فرانس في مواقف مختلفة و مواطن عدة.

ثانيا: إنها ترى مثله تماماً أن التناص يمثل مظهراً من مظاهر العلاقة الإيحائية التي تصل نصاً بنصّ آخر وتشحنه دلالياً.

والخلاصة أنّ أهم نقد توجهه الباحثة أوريكيوني إلى الباحث أربفي هو جعله مسألة "التناص" مقصورة على الإحالات الداخلية ضمن إنتاج المؤلف نفسه، على حين أن "التناص" في رأيها، يمكن أن يكون تناصّاً خارجيا أيضاً، وذلك بأن يكون حواراً يقع بين نصوص الكاتب ذاته وكتاب غيره. "فالتناص"، في رؤيتها ،"حوار مؤلف مع مؤلف آخر، أو حوار المؤلف ذاته مع نفسه"(١). وقد يكون كذلك حواراً بين أشكال أدبية، أو مضامين ثقافية... أو حواراً ينهض على أنظمة سيميائية مختلفة. وتخلص إلى أن اشتغال الإيحاء التناصي "La connotation intertextuelle" يمكن أن يتخذ عدّة أشكال شديدة الاختلاف.

وبهذه المنهجية يكون مفهوم "التناصّ" أوسع وأدق وأبعد تأثيرا.

* * *

(1) "L'intertextualite c'est le dialogue d'un auteur avec un autre aussi bien qu'avec lui-meme

تعريف نقدي برواية تاييس (Thais) لأناتول فرانس

معلوم أن أناتول فرانس ولد سنة ١٨٤٤ وتوفي سنة ١٩٢٤ عن سن تناهز الثمانين. قد أعدّ روايته التاريخية الشهيرة التي تعنينا، وعنوانها تاييس في سن تناهز السادسة والأربعين. صدر هذا الكتاب سنة ١٨٩٠[١]

ويجب أن نذكر كتاباً يعتبر من مصادر رواية تاييس، هو كتاب كان متداولا بكثرة في القرن الثامن عشر، وهو اليوم نادر عنوانه: حيوات آباء الصحراء "Les vies des peres du desert". وأكبر الظن أن هذا الكتاب شغل أناتول فرانس ولم يغب عنه، لقد قلده واستلهم منه موضوع رواية تاييس، وفيه وصفت بطلته بأنّها امرأة رائعة الجمال وكبرى النساء المذنبات في الإسكندرية، احتفظ فيه المؤلف بجوهر الكتاب وتصميمه ما عدا تغييرات طفيفة نذكر منها، مثلاً، قدوم تاييس إلى الدير وكيفية استقبالها من قبل الراهبات اللاّئي وفرن لها ما تحتاج إليه من "خبز وماء وناي"، خبز تأكله، وماء تشرَبه، وناي به تترنّم.

(1)Anatole France, Thais (1980), edition electronique du groupe (178 pages)

وقد ترجم كتاب تاييس تأليف أناتول فرانس (عضو الأكاديمية الفرنسية) إلى اللغة العربية، نقله أحمد الصاوي مُحَّد، نشر بالمطبعة العصرية بمصر، سنة ١٩٢٤ (٢٧٩ صفحة). وقد شاع ذكر هذا الكتاب لدى القراء العرب المستنيرين، ومنهم أبو القاسم الشابي الذي ذكره في مذكراته أو يومياته بتاريخ يوم الجمعة ٣ جانفي ١٩٣٠ (انظر مذكرات الشابي، الدار التونسية للنشر، ١٩٦٦) إلا أننا لم نجد ما يدل على أنه قرأ هذا الكتاب أو علق عليه أو استفاد منه.

وقد عرف خاصة بروايات ثلاث يقص في كل واحدة منها جزءا من حياته وهي:

-كتاب صديقي (Le Livre de mon ami 1885)

من هي تاييس؟ [(١)]

هي عنوان لرواية أنشأها أناتول فرانس واستلهم فيها التاريخ القديم، وهي تقوم على:

-أولا : معرفة واسعة بالعهود القديمة يوم كانت الإسكندرية تحت النفوذ الروماني. وقدرة عجيبة على وصف مصر في القرن الرّابع للميلاد، وتصوير دقيق لمختلف الفئات التي كانت تعيش فيها. إنما مدينة "المحاسن والأضداد".

-ثانيا: إيمان مناوئ للمسيحية.

وتاييس هو العنوان الذي اختاره أناتول فرانس لروايته التاريخية الشهيرة. وهو كذلك الاسم الذي خصّ به بطلته الأولى: كانت امرأة جميلة فاتنة، تقترف الخطيئة. نعتوها بفاتنة الإسكندرية بعد أن ملأت شهرتها الدنيا، وشغلت الناس، وبلغ خبرها الرّاهب بافنوس. تعيد إلى الذهن ذكرى "رودوبيس" القديمة التي يحفظ ملاّحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلب. وقد تذكرنا، على حد تعبير أناتول فرانس، بالمرأة تاييس التي عاشت قديماً في بلاد اليونان باسم هيلانة (Helene) وكانت لها حياة أخرى في مدينة طيبة"[(٢)]

والبطل الثاني لهذه الرواية يدعى بافنوس :Paphnus"، ولد بمدينة الإسكندرية من أبوين نبيلين وتأدب بأدب الدنيا. درج على سنن الحياة في عصره مدّة عشرين سنة. ولكنه بعد أن تهذّب على يد الكاهن ماكرين (Macrine)، وهو في سن العشرين، خلق خلقا آخر وعاد رجلا جديدا. اعتنق عقيدة المسيحية، وبقي سنة بعد تعميده، يدين بدين الكافرين.

---

(١) كتاب بيار الصغير ١٩١٨ (Le Petit Pierre)

"زهرة العمر" ١٩٢٢ (La Vie en Fleur)

انتخب في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦ وأحرز جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٢١.

(٢) أناتول فرانس، تاييس، ص ٢٤٢.

وذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ آية مؤداها: "إذا شئت أن تكون كاملاً، فاذهب بعْ ما لك. وأعطه للفقراء"(١). فباع ما عنده من ممتلكات وأنفقها في وجوه البرّ والإحسان، ومن بومها انخرط في سلك الرهبنة. ومع الأيام تعوّد التفكير فيما مضى من حياته فأدرك جسامتها واستغفر منها.

وتذكّر من بين خطاياه امرأة كان رآها أوّل مرّة في مدينة الإسكندرية منذ بضع سنين، قبل أن يهب للدين حياته. كانت امرأة لعوبا، ساحرة بجمالها تدعى تاييس. كانت تُشعل نار اللذة في المشاهدين وكان بافنوس من المعجبين بها: لقد أضرمت نار الصبابة في قلبه، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه، فاقترب ذات مرّة من بيتها لكن منعه التهيّب الفطريّ في الشباب الغضّ فلم يفعل شيئا، إذ كان أبواه يأبيان عليه البذل الكثير. وعلى الرغم من حضوره أمام صورة "الصليب المقدس" تراءت له صورة تاييس بجلاء تام. وما هي إلاّ أن عبّر عن توبته النصوح، وصرّح بأنه يجب عليه أن يُنقذها. ومن الغد، حضر لدى زميله الرّاهب باليمون (Palemon)، واستفتاه في موضوع إنقاذ تاييس قائلاً: "إنّه ليحزنني التفكير في أنّ هناك بمدينة الإسكندريّة غانية تدعى تاييس "تتمرّغ في الحمأة حيث تعيش ويلاً على النّاس ومذلّة لهم"(٢).

وعرض عليه خطّة لإنقاذها وفكّر في السفر إلى الإسكندرية. ولكن باليمون ذكره بنصيحة الأب أنطوان (Antoine) قائلاً: "حيثما كنت لا تتسرع بمغادرة مكانك إلى مكان سواه"(٣)، لأن في مغادرة النسّاك لبيوت العبادة ابتعادا عن طريق الخير. تنازعت في ذهن بافنوس الفكر، ثم أقرّ العزم على السفر. وما إن قدم الإسكندرية التي كان عاش

(١) المصدر ذاته، ص ١٥، وهيلانة: هي أميرة يونانية مشهورة بجمالها. وهي إحدى بطلات الإلياذة لهوميروس.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢١.

(٣)المصدر ذاته، ص ٢٢.

في منازلها فتى حتى حيّاها تحيّة مخصوصة، متذكراً شباب الخطيئة فيها قال: "أيتها الإسكندرية ! لقد حوّلت قلبي عنك، فأنا أكرهك وأمقتك للذاتك ولجمالك!، لعنة الله عليك يا معبد الشياطين! ومضجع الفجّار"[(١)].

وعند حلوله بالمدينة تذكر أن له فيها صديقاً يدعى نيسياس (Niciasse)، كان رفيقه في الدراسة منذ عشرين سنة خلت. فرغب منه أن يعيره حلّة معطرة، ونعلاً مذهّبا، وقارورة عطر، وألف دينار، فكان له ذلك. ثم أطلع مضيفه على حقيقة مشروعه وهو عزمه إنقاذ تاييس "من حضيض الشهوات الأرضية السافلة " [(٢)]. وكان صديقه نيسياس ذا حظوة عند تاييس. وإذا هو في المسرح الذي ستمثّل فيه "تاييس" ألعابها، ووجد نفسه جالساً في الصفوف الأولى. وظهرت تاييس مزهوة على الركح ببراعة جمالها فاستولت على كل القلوب. وزاد بافنوس إعجاباً بها وتعلّقا بجمالها. أليست هي "المرأة التي سيضمها عمّا قريب إلى السماء"[(٣)]. ونذر في نفسه من جديد أن ينقذها بعون الله: تلك هي خطّته. وما لبث أن حضر إلى بيتها واجتهد في مقابلتها.

وفي هذا المستوى من الرواية يستعرض أناتول فرانس حياة تاييس الماضية وكيف قضت فترة شبابها في الإسكندرية عند أبوين فقيرين ظالمين. كانت تنام في زاوية من الإسطبل بين الأنعام. تلقّت التعميد القدسيّ وهى ما تزال في عهد الصّبا. وهامت بحب اللّهو والمرح، فكانت ترقص وتغني مع أولاد الشوارع المتشردين. وتعلمت فنّ التمثيل الإيمائي الصّامت "وأتقنت في زمن قصير فنون الموسيقى والتمثيل والرقص".[(٤)] وما هي إلا أن تحررت من كلّ العقد وسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحبّ زمناً. وانغمست في اللّهو مع هذا وذاك. وبعد أن أقامت في أنطاكيا (Antioche)

---

(١)المصدر ذاته، ص ٣٨.

(٢)المصدر ذاته، ص ٤٨.

(٣)المصدر ذاته، ص ٦٤.

(٤)المصدر ذاته، ص ٨٦.

وتلّقت فيها من عشّاقها الذهب من غير حساب، اشتاقت أن تعود إلى الإسكندرية لتظهر فيها عزتها، وهى المدينة التي كانت فيها طفلة شقية محرومة.

وذات يوم، في كهف العذارى، شغلتها فكرة الموت إذ لاحظت بداية ذبول جمالها. وعلى إثر هذا الإحساس الفظيع حصل لقاء تاريخي بين راهب الدير بافنوس والغانية تاييس. وقف بافنوس جامداً أمام جمالها، متضرعاً لله أن يحفظه منها ومن سحرها الفتّان قائلاً: "اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سببا في غوايتي، بل سبباً لهدايتي"[١].

ثم عبر عن محبته إياها في الله قائلاً: "أحبّك في الله وإلى أبد الآبدين"[٢]، ثم أخبرها بأنه قدم إليها لإنقاذها. فلبّت دعوته شريطة أن يقيها شرّ الموت الذي تخشاه، ووعدها بذلك. وأوصلها إلى " بيت الخلاص" في بعض الأديرة. وامتلأت نفس تاييس بهجة، وكفّ الراهب عن التفكير فيها لكنّ تصميمه ظلّ عقيماً. إن الغائبة عنه كانت حاضرة لديه، فصورتها لم تغادر خياله في الحلم واليقظة فعزم من جديد على استفتاء صديقه الأب باليمون علّه يريحه منها. وعند لقائه أعلمه الأب باليمون "بأنّ تاييس الإسكندرية على وشك الموت" [٣]، فأسرع بافنوس في العدو ليرى تاييس آخر مرة. وحضر إليها، وهي تحتضر، فودّعها حزينا منكسرا. واستبدّ به سخط بلغ الكفر، حتى قال: "إن الله والسماوات ليست

(١)المصدر ذاته، ص ١٠٤.

(٢)المصدر ذاته، ص ١٠٨.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٦١.

شيئاً مذكورًا، ما من شيء له وزن... إلاّ الحياة الدنيا... والحبّ الجسدي"[١]. ماتت تاييس مؤمنة وحلّت ببافنوس نقمة الرب[٢].

والحقّ إن هذا الكتاب هو سليل تفكير فلسفيّ عميق يدل على اختلاف وجهات النظر تجاه الناس وتجاه الأشياء. وهو كذلك، سليل خيال خلاّق، ونتاج شاعر رقيق، ومفكر قدير يتقن صهر العناصر التي يقدّمها. فرواية تاييس ليست نصّا مفرداً بقدر ما هي نصّ جامع للعديد من النصوص التي قرأها المؤلّف الفرنسي أناتول فرانس واختزنتها ذاكرته وتفاعل معها فأنتجت نصّا جديداً طريفاً يوحي بالفكرة الفلسفية المراد تبليغها.

تعريف نقدي لرواية "الرباط المقدس" لتوفيق الحكيم

أصدر توفيق الحكيم روايته التي عنوانها "الرباط المقدس" سنة ١٩٤٤، وقد كان أصدر روايات كثيرة ومسرحيّات عدّة اشتهر بها[٣]. وليس هدفنا، هنا، أن نستعرض قائمة مستكملة لكلّ كتبه العربية أو المترجمة، لكنّ الذي يعنينا هو الوقوف عند روايته "الرباط المقدس" في علاقتها بالرواية الفرنسية "تاييس" وغيرها من المصادر المؤثرة المعلنة أو المسكوت عنها.

(١) المصدر ذاته، ص ٢٧٣.

(٢) لقد لفت كتاب "أناتول فرانس" أنظار الرهبان عند صدوره. وأثار غضب الكنيسة كلها، وقد أسف أناتول فرانس من الثلب الذي سلطوه عليه، لأنهم، حسب رأيه، إما إنهم لم يدركوا مقصده، وإما إنهم بقوا مكبّلين بقواعد الدغمائية الضيقة.

(٣)نذكر منها، على سبيل المثال، "عودة الروح"، "يوميات نائب في الأرياف"، "بجماليون"، "عصفور من الشرق". وقد ترجمت جل كتبه إلى لغات أجنبية منها اللغة الفرنسية أوّلا ثم اللغة الإنجليزية والإيطالية والإسبانية والألمانية والروسية والرومانية والعبرية، نذكر من بين كتبه المترجمة مثلاً: مسرحية "شهرزاد" التي صدرت عام ١٩٣٤ ، ترجمت ونشرت بالفرنسية في باريس سنة ١٩٣٦. ورواية "عصفور من الشرق"صدرت عام ١٩٣٨ ، ترجمت ونشرت بالفرنسية سنة ١٩٤٦، ويوميات نائب في الأرياف" صدرت عام ١٩٣٧، ترجمت ونشرت بالفرنسيّة عام ١٩٣٩، و "الملك أوديب" صدر عام ١٩٤٩ وترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠.

ولد توفيق الحكيم ولد سنة ١٨٩٨ وتوفي سنة ١٩٨٧ عن سنّ تناهز التسعين عاما. [١] وقد وضع ما يقارب الستّين كتاباً، نحو نصفها متعلّق بالمسرح العربي الحديث. كان مولعا بالتراث العربي القديم وبالتراث اليونانيّ. إذنْ كان توفيق الحكيم منتبها إلى مختلف الثقافات التي تغذي بعضها بعضاً. واهتمّ بكتابة القصة والرواية فألّف فيها كُتبا جلبت له عناية النقّاد وترجمت إلى لغات عدة، ويعنينا هنا بالذّات روايته التي عنوانها الرباط المقدس[٢]. كان الحكيم يؤمن بقيمة الآداب الغربيّة وبمدى تأثّرها بالآداب الأجنبيّة وتأثيرها فيها. وليس يعنينا هنا أن نستعرض حياة توفيق الحكيم بتفاصيلها، لكن لابد من أن نقف عند عنوان هذه الرواية. لا شكّ أنّ عنوانها يلفت نظر القارئ لما يتضمنّه من غموض. إنّها رواية خالية من الاستهلال (Incipit)، يغيب فيها التمهيد (Preface)، وتغيب فيها الديباجة (preambule) وقد أقبلنا على قراءتها بالرغم من أنّها نص مصمت خال من المقدمات. إلا أنّ فصولها المتعددة تضيء لنا النصّ تدريجياً وتكشف عن العلاقة المتينة التي تصله بعنوانه.

يُعلن توفيق الحكيم من البداية أنّ رواية الرباط المقدّس لها علاقة وثيقة بكتاب أجنبيّ عنوانه تاييس (Thais) للكاتب الفرنسي أناتول فرانس (Anatole France)، فقد ذكر أكثر من مرّة في غضون كتابه، أنّه استرشد به وعاد إليه وهو

---

(١) توفيق الحكيم، ملامح داخلية، ص ٣٠٠.

– انظر المقال الذي أمضاه فؤاد دواره ونشره في مجلّة الإذاعة والتلفزيون (مصر) في شهر ماي ١٩٧١. وفي هذا المقال حاور فؤاد دوارة توفيق الحكيم وسأله عن تاريخ ميلاده فأجاب قائلاً: "سني اليوم حوالي السبعين، بناقص سنتين أو بزيادة سنتين، وسنتان فوق أو تحت لم تعد تهمّ...، المهم شباب العقل دائما مع الصحة طبعاً"

(٢) توفيق الحكيم، الرباط المقاس، دار الكتاب اللبنانيّ، مكتبة المدرسة، الطبعة الأولى ١٩٤٤ (٢٢٩ صفحة). اعتمدنا الطبعة الثانية الصادرة سنة ١٩٨٤.

يستحضره اليوم، بعد مضيّ عشرين سنة. لقد نسي ما فيه، ، "فغرق بين صفحاته ليلتين. . حتّى لكأنّه يقرؤه للمرّة الأولى"[1]، والمتأمّل في القسم الأوّل من الكتاب أنه يتضمن خلاصة قصة حياته. إنّها ترجمة ذاتية فكريّة.

وخلاصة ما يذكره عن حياته الشخصيّة أنّه صارم في سلوكه، حسب شهادته، معتزل في علاقاته مع الناس، لا يعاشر إلا كتبه، ولا يشاركه في بيته سوى خادمه، داعية إلى الجدّ. لقد وسم نفسه، كما هو معروف، براهب الفكر، وقد شاعت عنه هذه العبارة طوال حياته. إنّه، حسب قوله، لم يشأ أن يخادع في حديثه الناس فيقول لهم ما لا يعمل: "إنّه كان يؤمن بأنّ واجب رجل الفكر والقلم أن يدخل على البشر الإيمان ويصارحهم بأنّ في إمكانهم أن يسمُوا على أنفسهم، وأنّ هذا الواجب يفرض عليه أن يعيش هو حياة سامية لا مطعن فيها ولا غبار عليها".[2] وهنا يقارن نفسه في عباءته وقلنسوته وسلوكه، بالراهب بافنوس الذي كان وصفه أناتول فرانس في كتابه "تاييس". كانت أكبر قوّة عند هذا الرّجل هي مقاومة النفس، لم يعُرف عنه الانغماس في ضرب من ضروب اللهو "حتّى كان في وجهه نضارة شابّ في الثلاثين"[3] وسنّه الحقيقيّة تحبو نحو الخمسين. لذلك كان يطيب له أن يقارن شأنه بشأن كهنة المصريّين القدماء الذين قال عنهم بلوتاركس (Plutarque) "إن القداسة والصحّة يسيران جنبا إلى جنب"[4]. ويطيب له بعد ذلك أن يستعرض "حياة الليل عنده في اتّصالها النبيل بما يقرأ في ساعات السكون... أمّا حياة النهار، فكانت مطالعة الصحف

(١) توفيق الحكيم، الرباط المقدّس، ص ٢٠.

(٢) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ٥.

(٣) المصدر ذاته، ص ٨.

(٤) المصدر ذاته، الصفحة ذاتها.

والبريد الوافد عليه من داخل مصر وخارجها"[١]، فأقصى ما يطلب الحكيم المطالعة مع حرص على النوم في موعده، وحرص على التكتّم.

إنّنا، إذن مع كتابين اثنين: "كتاب سابق" عنوانه " تاييس" لأناتول فرانس الفرنسي و"كتاب لاحق" عنوانه "الرباط المقدس" لتوفيق الحكيم المصري . لقد أصدر توفيق الحكيم كتابه الرباط المقدس وهو في سن السادسة والأربعين من عمره، وأصدر أناتول فرانس كتابه "تاييس" وهو في سنّ السادسة والأربعين كذلك، أي كلاهما نشر كتابه الذي يعنينا وهو يقترب من الخمسين، وهي سن النضج الفكري. فلا غرابة أن يكون هذان الكتابان يتضمنّان فلسفة مؤلفيهما الإنسانيّة.

اقتنع راهب الفكر توفيق الحكيم، في كتابه، بالصعوبة القائمة بين مهمة راهب الفكر ومهمة راهب الدّين. فالوصول، في رأيه، إلى حظيرة السماء ليس صعباً، ولكن الوصول إلى شؤون الفكر يحتاج إلى طريقة صعبة دقيقة. ويكشف توفيق الحكيم للقارئ عنايته بكتاب أناتول فرانس والإقبال على مطالعته طويلاً، والإعجاب بالراهب بافنوس، بل هو يعتبر أن علاقة بيّنة تقوم بينهما، أي بين الحكيم والراهب بافنوس. ويطيب له أن يحدثنا عن قصّة لقاء بافنوس "بتاييس" واجتهاده في هدايتها إلى "نور السماء " من يوم ترك صومعته في الصحاري واجتهد في الظفر بها في مدينة الإسكندرية، فيذكر رحلته الشاقة الصعبة معبراً عن حبّه الأثيل لتاييس. وما هي إلاّ أن قارن اجتهاد بافنوس في الظفر بالغانية تاييس باجتهاد راهب الفكر وحرصه على العناية بالفتاة التي قدمت إليه تستفتيه في شؤون الفكر والأدب. فكما خلق بافنوس "فتاة الإسكندرية" تاييس خلقا جديدا بهدايتها، رأى الحكيم أنّ عليه أن يخلق الفتاة القاهرية التي قدمت إليه تستفتيه خلقا

(١) المصدر نفسه، ص ٨ و ص ٩.

جديداً، وأن يجعلها شبيهة بملكة يُذكر اسمها في التاريخ. وينهي كلامه بقوله كلاماً لابد من التنبيه إليه وهو "إن المرأة هي كنز الكنوز... بل هي معجزة المعجزات"(١).

وبلغت علاقة الحكيم بالزائرة القاهرية مرحلة متأزّمة عند مطالبته إيّاها بمطالعة كتاب تاييس. ولسائل أن يسأل لماذا اقترح عليها الحكيم كتاب تاييس بالذات؟ لعل مشروع اختيار هذا الكتاب لها من أول وهلة توفيق منه: " فقد تدرك منه بعقلها أو بشعورها قداسة ذلك الجمال العلويّ، الذي نبذت في سبيله "تاييس" كل عَرَض الدنيا وثراءها وبهجتها، وهذا بعض ما يريده لهذه الفتاة، أن يعمر قلبها نور جديد، مبعثه السماء لا الأرض، وأن تؤمن إيمانا صادقاً بالجمال المعنويّ الذي لا تعرف اليوم معناه ولا مداه"(٢). المهم إنها عادت إليه، وقرأت الكتاب مليا وفاجأته بدعوته إلى مشاهدتها في لعب التنس وهي مستفيدة في ذلك، من موقف بافنوس في كتاب تاييس مستدلة قائلة: "إن الراهب بافنوس هو الذي ذهب إلى الغانية لينتشلها ... وأنت أيضا ينبغي أن تفعل ذلك.. يجب أن تهبط إلى ملعبي لترتفع بي... هكذا يفعل الرسل والأنبياء دائماً!. ... يهبطون إلى الناس، حتى يستطيعوا بعد ذلك أن يصعدوا بهم إلى السماء؛ ولم يحدث قط غير ذلك، ولا تنتظر أن أصعد أنا إليك توا بغير أن تهبط أنت إلي وتأخذ بيدي!" (٣) لقد أدهشه قول الفتاة وعمق تفكيرها وتذكّر أنّ "رجل الأدب" له رسالة تماثل رسالة "رجل الدّين" تتجلّى في ضرورة نزول الأنبياء والرسل من عليائهم ليسموا بالبشر إلى أعلى المراتب، كما أدرك أن سر قوة الأنبياء والرسل تكمن في اجتياز تلك التجربة الصارمة والامتحان العسير بسلام. فالنبيّ الحق هو الذي ينزل بين الناس؛ ويطهر نفوسهم ويعود طاهرا كما نزل، أمّا الرسول الكاذب فهو من هبط

(١) المصدر ذاته، ص ٢٤.

(٢) المصدر ذاته، ص ٣٠.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٩.

ورسب ولم يستطع العودة إلى الأعالي. وتذكّر راهب الفكر الراهب بافنوس مرة أخرى، وبدرت إلى ذهنه كارثته ومأساته وسقوطه في نهاية الأمر في عشق تاييس ذلك العشق الآثم، "بينما ارتفعت هي إلى طهارة الروح، وبلغت مراتب القديسات"[١]. لكن بافنوس كان "مؤمناً زائغا". وبعد أن فكّر راهب الفكر ملياً في الأمر، وأدرك ما في عملية النزول والصعود من مغامرة، قرر أن صلته بهذه الفتاة القاهرية "لا ينبغي أن تعدو الغرض النبيل الذي جاءت له، وهو التحدّث في شؤون الفكر ! ..." [٢] والغريب أن راهب الفكر الذي كان يسترشد بما فعله راهب تاييس مع فتاة الإسكندرية استلهم كلمات الحب التي خاطبها بها، فإذا به أصبح اليوم يخشى أن يسير على خطاه. إنه يخشى أن يسمو بهذه الفتاة القاهرية إلى أعلى ويقع في عشقها الآثم، فيسقط ويكون مغضوبا عليه في الأرض. وهذا اختلاف أساسي بين الراهبين راهب الفكر وراهب الدين .

إن "الفتاة القاهرية " قد أمست تحبّ الكتب وتقبل على المطالعة، إنّها قد قرأت كتاب تاييس في ليال ثلاث كما قرأت جل كتب توفيق الحكيم. المهم أنها بشهادة زوجها "انقلبت مخلوقًا آخر في خلال أسابيع؛"[٣] وخلال هذا الفصل يعبّر راهب الفكر عن وجوب الثقافة للمرأة حتى تظفر بالإجلال الواجب لها. ولا يكون لها ذلك إلا إذا عرف عقلها كيف يخاطب عقل الآخرين. وهكذا بقي توفيق الحكيم مدهوشاً مما آلت إليه هذه المرأة: "لقد نجح عفوا – من حيث لا يتوقع– نجاحا باهراً في وضع يده على مبدأ الطريق، وفي سرعة لم تخطر له على بال قد ظفر بنتائج رائعة"[٤]. وهنا يحسن

(١) المصدر ذاته، ص ٤٠.

(٢) المصدر ذاته، الصفحة ذاتها.

(٣) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ٤٣.

(٤) المصدر ذاته، ص ٤٣.

الرجوع إلى فصل مفيد عبّر فيه الحكيم عن رأيه وموقفه منها قال: "شعوري الخاص نحو المرأة تجده في كل ما كتبت: شعور المحبة أو ما هو أكثر من المحبة، أمّا شعوري العام من المرأة باعتبارها تطالب في المجتمع بوظيفة تشابه وظيفة الرجل تماما، فهذا ما أخالفها فيه"(١).

وبعد الزيارة التي أدّاها الزوج إلى الحكيم حضرت الفتاة في بيته وحصل بينهما حديث كشف له عن بعض أسرار نفسها، وألحت عليه في أن يكتم أمر مجيئها إليه، وبذلك وضعته في مأزق جعله يقرّر الانقطاع عن استقبالها في مكتبه، وفهمت "أن عالمه الصّارم قد استرده إليه". (٢) ولاحظت منه حركة انصراف عنها فتوادعَا.

ومّرت أيام على غياب تلك المرأة الجميلة و "راهب الفكر" منصرف إلى أعماله، لا يفكّر فيها، ولا يأبه لأمرها؛ ولكن لما طال غيابها اتخذ تفكيره في شأنها صورة جديدة. ومرّت "براهب الفكر" أيام عسيرة، لم ينعم فيها بالنوم الهنيء، فقد كان طيفها يزوره بين الفينة والأخرى. ثم لجأ كعادته في ليالي السهاد إلى كتبه متخيراً كتاباً في الفلسفة لأبي بكر الرازي، جعل يطالع منه رأيه في الحبّ: "إن مفارقه المحبوب أمر لا بد منه اضطراراً..، وإذا كان لا بد من إساغة هذه الغصة، وتجرع هذه المرارة، فإنّ تقديمها والراحة منها أصلح من تأخيرها والانتظار لها؛ ... والعشق متى انضّمت إليه "الألفة" عسر النزوع عنه، والخروج منه، فإن بليّة "الألفة" ليست بدون بليّة العشق"،(٣) والحجة ذاتها احتج بها أفلاطون على تلميذ له وقع في حب جارية فنصحه أفلاطون بمفارقتها قبل أن تشتد به الغصّة وتتضاعف المرارة. وشفي الرجل ولم يعاوده شيء مما كان فيه.

---

(١) توفيق الحكيم، ملامح داخلية، ص ١٢٧– ١٢٨.

انظر الفصل الذي حاور فيه فؤاد دوّاره الحكيم، ونشر بمجلة "المجلة"، أغسطس، ١٩٦٤.

(٢) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ٥٤.

(٣) المصدر ذاته، ص ٥٨.

قرأ الحكيم هذا الكلام، وتذكر ما كان من أمره مع "الفتاة القاهرية" التي جاءت تستفتيه في شؤون الفكر، وحمد الله أنه سلك معها المسلك اللائق به وبها. لقد تصرف معها عين التصرف الذي يمكن أن يصدر عن الفيلسوف الإسلامي أبي بكر الرازي وعن الفيلسوف اليوناني أفلاطون، فقطع بـ " فتاته القاهرية" الصلة على الفور. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ رقد الفلاسفة في بطون كتبهم أما هو فقد أصابه، على حدّ قوله، السهاد والأرق.

إنّه لم يستطع أن ينساها على الرغم مما بذله من جهود، وما فرضه على نفسه من إرادة وما تشبث به من عناد "فكل شيء حوله كان يذكره بها"[١]. وصح العزم منه على أن يوافيها بمجموعة من الرسائل يعبّر فيها عن مثله، مخاطباً طيفها الذي لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً. وصح العزم منه كذلك على أن "لا يحيد عن واجب الشرف، أو يصرف زوجة عن واجبها المقدس نحو زوجها"[٢]، ومع هذا استمّر في حبها على طريقته الخاصّة به، واستأنف حديثه مع من أحب بعد أن برّح به الألم. وتوالت بعد ذلك الرسائل إلى طيفها،"فربّما كان في ذلك تسرية عنه، وربما كان فيها أيضا إكبار للحب بغير إنكار للواجب"[٣].

وما هي إلاّ أن استبدت بذهنه صورة الزوجة المثالية التي طالما تمنى الظفر بها. وهكذا تمثل بزوجة كارل ماركس (Karl Marx)[٤]، وماري آن (Marie- Anne) زوجة دزرائلي (Disraeli) [١] وإيزيس[٢] (Isis) (زوجة أوزيرس

(١) المصدر ذاته، ص ٦١.

(٢) المصدر ذاته، ص ٦٢.

(٣) المصدر ذاته، ص ٦٢.

(٤)فيلسوف ورجل اقتصادي ألماني، ولد بتراف (Treves) سنة 1883 وتوفي سنة ١٩١٨ . هو الذي حرر مع أنجلز (Engels) "بيان الشيوعية" "Manifeste du parti communiste" قال الحكيم:

(Osiris) [٣].تمثل توفيق الحكيم بهؤلاء الزوجات الثلاث، منوّها بالشبه الذي يقوم بينها وبينهن، كما يلقنها درسا في الحب والوفاء والإخلاص.

خديجة أو الزوجة المثلى

إلاّ أنه ماز من جميع النساء امرأة مخصوصة هي خديجة بنت خويلد زوجة النبي محمّد. فهي المرأة التي شدّت أزر محمّد وعززت شأنه. وماز من بين النساء كذلك امرأة ثانية هي عائشة زوجته الثانية المفضلة. ولما أشاعوا عنها حديث الإفك صارحها حتّى برّأتها الآية الكريمة ...." [٤] وختم الحديث بقوله: "إن المرأة النادرة هبة الله الكبرى"[٥].

هكذا قرّر الحكيم أن "الحبّ الحقّ أمره غريب"، ثمّ واصل حديثه مع "الفتاة القاهرية" مؤكّدا لها أنّ فرقاً كبيراً يقوم بين حقيقته الباطنة وحقيقته الظاهرة لعامة النّاس. وهنا لاذ بالقسم قال: "أقسم لك أنّي في الباطن خير بكثير منّي في الظاهر،

عندما طرد كارل ماركس من بلاده . . . أبت زوجته إلا أن تخرج معه وتتشرد كما تشرد. . . كل هذا التشرد مع شظف العيش وحلك الأفق ما زعزع إيمان الرجل بفكرته. ولا غيمان الزوجة بزوجها" توفيق الحكيم الرباط المقدس ، ص ٩٥

(١)كاتب روائي ورجل دولة أنجليزي، ولد بلندن ١٨٠٤ وتوفي سنة ١٨٨١. كان وزيرا أول ما بين سنتي ١٨٦٨– ١٨٨٠، وكان رئيس حزب المحافظين.

– يريد الحكيم بهذه الأمثلة أن يقنع الفتاة القاهرية بأنه يحب ماري آن زوجة ديزرائيلي ويستحثها على حبها كما أحبها هو.

(٢) إلاهة الحب وزوجة أوزيرس.

(٣) إلاه مصر القديمة، حامي الأموات، أخ وزوج إيزيس. قال الحكيم:

ـ تلك هي إيزيس المصرية... لا أريد أن أتعرض إلى الجانب الديني أو الإلاهي في أسطورتها... فالذي يعنيني هو جانب الزوجة ... إن وفاءها لزوجها أوزيريس لمعجزة في نظري من معجزات القلب الإنساني". توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص١٠٠.

(٤)تلك هي خديجة زوجة النبي العربي صورتها تخطر لي دائماً ولا تبرح ذهني كلما فكّرت في الزوجة المثلى، تلك التي تتخير زوجها وهو غارق في ميدان كفاحه، فتقف إلى جانبه في الهزيمة والفوز واليأس والأمل" توفيق الحكيم، المصدر ذاته، ص ١٠٧ .

(٥) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ٧٩.

لأنّ الباطن هو ملكي ومن صنعي، ولكن الظّاهر هو ملك الناس ومن صنع الظروف!" [١]. هكذا يرى الحكيم نفسه، وهكذا ظلّ الحكيم يبحث عن الحبيب الذي ظلّ يخامر قلبه، وعن الأمل الذي لم يمت فيه.

* * *

إذن جزء مهمّ من كتاب الرباط المقدّس يتضمن مجموعة من الرسائل إلى طيف الحبيبة. منوا ما ذكره ذكراً واضحاً، ورسم فيه ملامح الزوجة المثاليّة عنده. في تلك الفترة من الزمان كان الحكيم أعزب، لكنّه قد عاشر نساء في فرنسا وفي مصر قبل الذّهاب إلى فرنسا، وفي مصر بعد رجوعه من فرنسا. إذن المرأة ما تزال مشكلا قائما في حياته. وقد خص خديجة بنت خويلد زوجة النبي العربي بكلام جعلها تعتبر الزوجة المثلى، فلقد كانت هي البادية بالخطوة الأولى نحو رجل فقير يتيم. إلاّ أنّ الحكيم بعد أن أكد أن خديجة هي من الّنساء النادرات، يتجه إلى فتاته القاهرية مخاطبا إيّاها بما أوتي من لباقة وذكاء قال: "أيتها العزيزة!.. لو سألوني عنك لقلت، ليس في دنياي إلا أنت!..." [٢].

إن لناّ في هذه الصفحات بيان عشق عبر عنه توفيق الحكيم، وكان حريصا كل الحرص على إخفائه على الناس أولاً وعلى صديقته القاهريّة كذلك، وقد عبّر عن ذلك هامسا: "ما من أحد في الوجود يرى ذلك الحبّ المضيء في قاع نفسي كاللؤلؤة!.. حتّى ولا أنت!.." [٣].

وشاءت ظروفه لا نعلم تفاصيلها أن يلقى الحكيم زوجها في حلوان في فندق "جراند أوتيل" ويخبره أن زوجته أمست تكتب اعترافات وقدّم له "كراسة حمراء" مسطورة بخطها.

(١) المصدر ذاته، ص ٨٠.

(٢) المصدر ذاته، ص ٧٩.

(٣) المصدر ذاته، ٨١

الكراسة الحمراء

إنّ هذه الكراسة الحمراء جاءت نصّا مضمنا في رواية الرباط المقدّس وقد يكون عنوانها هو الدافع الحقيقي لقراءتها. ولعلّ جوهر موضوعها هو قضية المرأة العربية بإطلاق ورأي توفيق الحكيم في ذلك. فالبطلة في الرباط المقدس هي صنو البطلة في المسترجلة، ولعل الحكيم بذلك أراد أن يصور مسترجلة مصريّة بعيوبها وخصائصها وآمالها، ولكنّه لم ينس في ذلك هوّيته الشرقية. العقدة في الروايتين هي نفسها، إذ يتضح أنّ كلتا البطلتين تَشكوان من حبّ جسدي جامح، راجع إلى لامبالاة الزوج بما تحسّ به الزوجة، وراجع كذلك إلى أساليب التربية التي كانت من حظّ كلّ واحدة منهما. فكلتاهما وجدت في المغامرة حلاّ لعقدتها وفي كتابة الاعترافات سبيلا إلى الخلاص. إلاّ أنّ اختلافا أساسيّا يبقى قائما في الروايتين، فبطلة الرباط المقدس شرقيّة ومحافظة على شرقيتها، إذ هي تابت بعد السقوط في الإثم وآمنت بأنّ للنساء "رسالة نسويّة لا تدركها إلاّ الأنثى"[(١)] وقد تحرّرت جسديّا وجنسياً. لكنّ سؤالا أساسياً نلقيه في نهاية هذه الدراسة وهو ما هي مقاصد توفيق الحكيم من تأليفه هذه الرواية؟ لعل مقاصده لا تتعدّى العناية بقضية وضعية المرأة العربية، كما لا يغيب عنّا عناية كبار المفكرّين العرب بها يومئذ.

* * *

ما هي خلاصة هذه "الكراسة الحمراء"؟ ما هي النتائج التي قرّرتها صاحبتها وانبرت للدفاع عنها؟

أوّلا: انّها تزعم أنّها قامت بإنشاء عمل أدبيّ بعد أن أغرتها المطالعة بحبّ الكتابة. وهي تعترف "لراهب الفكر" بأنّه هو الذي غرس في نفسها حب الأدب. لكن "راهب الفكر" ليس على موقفها. إنّه لم يقتنع بدفاعها عن نفسها فتؤكّد له أنّ

(١) توفيق الحكيم، الرباط المقدس، ص ١١٤.

الكتابة اليوم على "المغامرة الغراميّة" هي حلم كلّ امرأة معاصرة. ثمّ نجدها تلتمس من "راهب الفكر" أن يكون الوسيط بينها وبين زوجها حتّى تسْلم حياتها الزوجيّة وتسلم حياة ابنتهما. إنّها تؤكّد له ثانية أنّ "الكرّاسة الحمراء" لا تعدو أن تكون قصة خيالية، وكان مضطرّا إلى الموافقة. ويقوم الحكيم بالمهمّة المطلوبة منه، ويبلغ الرسالة إلى زوجها ولكنّه يخيب في إقناعه.

لئن تفهّمت "المرأة القاهريّة" موقف زوجها منها وعناده، فإنّها تخالف "راهب الفكر" في مساندته له، لأنه، في نظرها، فكر وتدبير. فهو مطالب أن يواكب تطوّر الزمن، وأن يلقّن سائر الناس أنّ المرأة كائن له حريّته، وأنّ الزواج لا ينبغي أن يفسّر بأنّه قيد في عنق المرأة. ورغم اقتناع "راهب الفكر" بعمق رأيها، فإنّه يشعر بارتياح عندما "يتذكّر أنّه لم يتزوج ".

بين تاييس وبافنوس والفتاة القاهرية وراهب الفكر

كان "بافنوس" في رواية "أناتول فرانس" قد أحبّ "تاييس" حبّا لم يحب مثله امرأة قطّ، لكن آل به الأمر إلى السقوط فأصبح من المغضوب عليهم في الأرض والسماء. أمّا راهب الفكر فقد أحبّ "المرأة القاهرية" حبّا عميقا إلى أن قرأ اعترافاتها فغيّر رأيه فيها وقرّر الفكاك منها. فاستخفّت هذه المرأة بموقفه ، وذكّرته بأنّها شبيهة بتاييس في ارتكاب الخطيئة قائلة: ألم تقض هذه "المرأة الإسكندرانيّة" حياتها في الدعارة ومع هذا انقلبت في آخر الأمر قدّيسة؟ إنها تنتظر فرصة الغفران كذلك. لكن "راهب الفكر" ينبري معترضا على هذه التسوية بين الموقفين لأنّ تاييس لم تكن متزوجة، ولم تكن أمّا لطفلة.

المهمّ إنّ "راهب الفكر" خسر الصفقة مع "الفتاة القاهرية"، فهو لم يحسن المرافعة عنها، رغم أنّه هو المسؤول عمّا حدث لها من يوم أن سلم لها كتاب "تاييس" لأناتول فرانس إنها تثبت له في أكثر من مناسبة أنّها قرأت الكتاب بإمعان وتدبرت مفهومه، وأرادت أن تكون، في نظره، على الأقلّ مثلما كانت "تاييس" لدى الراهب بافنوس. وذكّرته بفحوى

الكتاب "وكيف استطاعت تاييس أن تخلب لبّ الرّاهب وتجعله يخلع مسوحه، ويجري في أثرها كالمجنون"(١). أما هي، فكأنها لم تحرّك لدى "راهب الفكر" ساكنا. احتارت في أمرها وسألت نفسها وسألته "لماذا جعلتني أطالع هذا الكتاب بالذات؟ "وأجابها "راهب الفكر" جوابا مقنعا في الظاهر قال: "جعلتك تطالعينه لتعتبري بنهاية تلك الغانية!". (٢) ولكنّ هذا الجواب لم يف بالغرض المرتقب لديها وهي على تمام الاقتناع بأن "عهد القديسين والأولياء الصالحين قد ولّى بغير رجعة لذلك اعتبرت ببداية هذه الغانية لا بنهايتها، معللة ذلك بقتامة هذه النهاية. ولكن "راهب الفكر" لم يقتنع برأيها ودافع عن "تاييس"، ورأى نهايتها مضيئة بنور الفضيلة لأنّها أخلصت في حبّها لله؛ وهكذا حدثت الأعجوبة وانقلبت تلك المرأة "الساقطة" في نظر الجميع "قديسة تفتح لها أبواب السماء"(٣). ولكن "الفتاة القاهرية" أثبتت له بالحجة أن بافنوس لم يحب في تاييس المرأة القديسة، وإنّما أحبّ فيها المرأة اللعوب. أليس هذا هو موقف توفيق الحكم منها ؟ بلى! ألم يعلن أنّه: "ما من رجل يحبّ في المرأة غير المرأة "(٤).

وفي نهاية النقاش الذي حصل بينهما انتقدت "المرأة القاهرية" "راهب الفكر" لمبالغته في التشبث بالفكر والتفريط في الجسد. ثم انبرت تستثيره وتحرك فيه الحواسّ والمشاعر لتجعل منه إنساناً متوازنا وبذلك تهديه إلى سواء السبيل. يدرك الحبّ، وينتعش بلمس الأجسام الناعمة الجميلة تماما كما ينتعش بلمس الكتب المفيدة.

وبقدر ما انتصر عليها بالأمس يوم كان "يعتصم بحصون الفكر والكتب والأدب" انتصرت عليه اليوم إذ أقنعته "بأنّ الفكر محاصر.. والحواس هي الآن صاحبة السلطان!" (٥). وما هي إلاّ أن أقبل "راهب الفكر" يستلهم الكتب، من جديد مستهدياً بنور الفكر ومستنجدا بيقظة الحواسّ وقد علم أن "الشجاعة ليست في تجنب مزالق الجسد، وتحاشي مواطن الزلل بل في مواجهتها بمصباح الحقائق ونور المثل العليا! (٦)"

* * *

إن نزعات التأثر والتأثير في نشأة "الأدب المقارن" وهيمنة المنهجية الفرنسية ما لبثت أن أصبحت ذات مركزية أوروبية، وهكذا شق الأدب المقارن طريقه إلى جل الجامعات ومراكز المعرفة الأروبية. معنى هذا أنّه لا يوجد أدب أصيل لا يتأثّر ولا يؤثّر، وهذا يقودنا إلى فهم أفضل للآداب في علاقاتها بعضها ببعض. وما هي إلا أن اضطلع التوثيق بدور أساسي في

(١) المصدر ذاته، ص ٢٠٦،

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٠٦.

(٣) المصدر ذاته، ص٢٠٧.

(٤) المصدر ذاته، ص ٢٠٧.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢١٤.

(٦) المصدر ذاته، ص ٢٢٩.

دراسة الأدب المقارن. فإذا بحثنا عن توفيق الحكيم العربي المتأثر بالأدب الفرنسي، لا بد من الوثيقة المؤيدة، ومثل ذلك نقول إذا بحثنا عن شكسبير الإنجليزي المتأثر بالأدب الفرنسي، أو موليار الفرنسي المتأثّر بالأدب الإيطالي أو دانتي الإيطاليّ المتأثر بالأدب العربيّ الإسلاميّ. وما هي إلاّ أن اتّسع فضاء الأدب المقارن كما تطوّرت منهجيّاته وتنوّعت آلياته فأدرك "العالميّة" مع جوته (1749 -1832) "Goethe" الألمانيّ المتأثر بالأدب العربي الإسلاميّ يوم نشر الديوان الشرقي للمؤلّف الغربي .(Diwan occidental et oriental) (1819)

استقرّ مفهوم الأدب المقارن على دراسة الآداب في تأثيرها وتأثرها بعضها ببعض فالتقينا بتوفيق الحكيم المصري صاحب الرباط المقدس متأثراً برواية تاييس لأناتول فرانس الفرنسيّ أيّما تأثّر. وهكذا لم تلبث النصوص في الأدب العالميّ أن تلتقي لأنّ دراسة الأدب المقارن جعلتنا لا ننظر في كلّ أدب قوميّ على حده، بل ننظر إليه من وجهة عالميّة.

وبهذا المعنى تبرز قضية التناصّ كذلك. فلا شك أن كلّ "معارضة" هي نص متداخل مع نص سابق. لقد أكد ذلك شولز (Sholes) عندما أثبت أن النصوص لا تخلو من تعقيد في تداخلها وارتدادها. وفي هذا الموضوع يقول ليتش (Leitch): "إنّ النص ليس ذاتاً مستقلة، ولكنّه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى". وبلغ هذا المصطلح إلى باختين الروسي الذي حوّله إلى نظرية حقيقية كما سبق أن ذكرنا. ثمّ نجد الفكرة واضحة عند الناقدة البلغاريّة الفرنسية جوليا كريستيفا، وذلك بعد أن نفت إمكانيّة وجود نصّ خال من علاقات بنصوص أخرى. وهكذا استفدنا من "الأدب المقارن" و"علم التناص"، واستضأنا بهما في دراسة الرباط المقدس لتوفيق الحكيم.

إننا إزاء نصين متفاعلين أحدهما ينتج ذاته والآخر يتأثر به، فينتج نصاً جديداً فيه من خصائص النص الأول غير قليل، كما فيه لون من خصائص ذاتية تميزه. فنص أناتول فرانس رواية تاريخيّة فكريّة فلسفيّة، ونصّ توفيق الحكيم رواية أدبية فكرية فلسفية كذلك. يتّسم النص الأوّل لأناتول فرانس بوصف تاريخي نقدّي لرجال الكنيسة المسيحيّين في نهاية القرن التاسع عشر تتخلّلها دعوة ضمنيّة إلى وجوب التحرّر من السيطرة المطلقة لرجال الدين. أما النص العربي فيتسم بوصف تاريخيّ نقدي لوضع المرأة المصريّة في منتصف القرن العشرين، تتخلّله كذلك دعوة ضمنيّة إلى وجوب تغيير شؤونها والحرص على تعليمها وتثقيفها وتحريرها من السيطرة المطلقة للمجتمع الرجاليّ.

إنّنا مع أناتول فرانس وتوفيق الحكيم في صلب قضية "الأدب المقارن" وعلم "التناصّ". نصّ الحكيم هو النص الثاني وهو سليل نصوص سابقة، تغذى بها صاحبها واستفاد منها وغيرها ووسمها بطابعه الخاصّ وهويّته الذاتية. أنشأ منها نصّا جديداً سنته الأدبية مخالفة للسنّة الأدبيّة السابقة وقضيته الفكرية مخالفة لقضية النص السابق أي نصّ أناتول فرانس. والقضايا القائمة في النص الثاني أي نص توفيق الحكيم وان كان منطلقها النصّ الأوّل. فقد جاءت ملتزمة بقضايا عصرها. ولعلّ هذا ما يجعل النصّين المتقابلين يلتقيان في صيغتهما الفنية وعمق العواطف الإنسانية.